خولة بنت الأزور الكندى

بقلم . م . أسعد طلس

فى السنة الثالثة عشرة للهجرة يعزم خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفتح الشام فيجمع الصحابة ويخطبهم قائلاً « . . . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عول أن يصرف همته الى الشام فقبضه الله إليه ، واختار له ما لديه ، ألا وإنى عازم أن أوجه أبطال المسلمين الى الشام بأهليهم وما لهم ، فماذا ترون ؟ » فلا يرى من المسلمين إلا ارتياحاً ، فيعمد الى بقية الأمصار الاسلامية من أطراف الجزيرة فيكتب إليهم بالأمر ، ويستنفرهم خفافاً وثقالاً ليجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وما هى إلا أسابيع حتى تقدم عليه الوفود فى العدد العديد ، والذرارى والأموال ، فيخرج إليهم المسلمون مستقبلين بوجوه باسمة ، وقلوب جذلانة ، ويعم المدينة روح مبارك ، وكيف لا والمسلمون يجتمعون كلهم فى صعيد واحد لنصرة دين الله ، ورفعة شأو التوحيد .

ها هى ذى حمير بدروعها الدوادية ، وسيوفها الهندية ، تزحف بآلافها المؤلفة وعلى رأسها زعيمها ذو الكلاع الحميرى ، يكبر ويهلل والقوم من ورائه يكبرون ويهللون . وها هى ذى كتائب مذحج وطىء والأزد وكنانة بخيولها العتيقة ، ورماحها الدقيقة ، تؤم عاصمة الاسلام ، فما أن يراهم أبو بكر حتى يخر لله شاكراً أن ألف من هذه القبائل المتنافرة أمة واحدة ، نزع الله ما فى قلوبها من غل ، وجعلهم بنعمته اخواناً ينصرون دينه وينشرون رسالة نبيه . فى أطراف المعمورة .

اجتمعت هذه الآلاف المؤلفة فعسكرت خارج المدينة تنتظر إشارة أبى بكر خليفة رسول الله ، وما أن تكاملت الوفود حتى خرج إليهم رضوان الله عليه فى جمهرة من كبار الصحابة ، فلما أن أشرف عليهم من على ورآهم قد ملأوا السهول والجبال حتى حمد الله وقال « اللهم أنزل عليهم النصر وأيدهم ، ولا تسلمهم الى عدوك إنك على كل شىء قدير »

ثم أمر الأمراء وعقد الألوية ، وأوصاهم وصيته الخالدة وفيها يقول « . . . شاورهم فى الأمر ، واستعمل المدل ، فانه لا أفلح قوم ظلموا ، وإذ لقيتم العدو فلا تولوهم الأدبار ، وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ، ولا تغدروا اذا عاهدتم . وستمرون على قوم فى الصوامع رهباناً يزعمون أنهم ترهبوا فى الله فلا تهدموا صوامعهم ودعوهم . . . » فأمن القوم وهللوا فدوت بأصواتهم الجبال ، ثم ساروا على يمن الله ، وسار الخليفة وكبار الصحابة يودعونهم حتى ثنية الوداع .

سار القوم وكلهم إيمان وصبر ، وعزيمة وحزم ، وطاعة لأمرائهم ، وجلد على السير ، وتواد وتعاطف .

كان فى هذا القوم شاب كندى ما جاوز العقد الثالث ، جميل المحيا ، عالم بفنون الحرب ، فاتك فى النزال ، قوى الايمان بنصرة الله عباده المخلصين ، لا يعرف إلا الاقدام ، يتقدم الجيوش والمنية مشهرة سهامها . ذلك هو الأمير « ضرار بن الأزور الكندى » الشاب الحدث الذى ما أغنا غناءه بطل فى فتوح الشام إلا سيد القواد سيف الله خالداً .

وكان فى الغازيات اللائى كن يتبعن هذا الجيش ، كاعب عروب ، ذات جمال باهر ، وطرف فاتر ، خرجت فيمن خرجن من عقائل حمير تأسوا الجرحى ، وتعين على نصرة الحق . ولقد أبلت بلاء مغاوير الأبطال ، فكان هذا الغزال الغرير ينقلب الى أسد كاسر يصلى العدا ناراً حامية ، يروع القلوب ، وتجف من هوله الأفئدة ، ولم لا وهى إبنة « الأزور » ذلك البطل الذى قضى بين يدى المصطفى دفاعاً عنه ، وأخت ضرار صاحب فتوح الشام ؟ . . .

المسلمون يحاصرون دمشق وأهلها فى أشد الضيق ، وبينا المسلمون يكادون يظفرون بالقوم ، إذا هم برسول من قائد جند أجنادين ، يخبر خالداً أن الروم تجمعوا عليهم فى أجنادين فى عدد عديد ، فيشاور خالد أبا عبيدة فى ترك دمشق ، فلا يرى ذلك أبو عبيدة فيقول خالد « فأرى أن ترسل إليهم كتيبة عليها قائد درب ، وأرى أن ترسل إليهم يا أمين الأمة رجلاً لا يخاف الموت أبداً ، خبيراً بلقاء الرجال ، قد مات أبوه فى القتال ، فقال أبو عبيدة ومن ذلك يا أبا سليمان ؟ قال هو ضرار بن الأزور بن طارق ، فقال أبو عبيدة لقد صدقت ووصفت رجلاً باذلاً معروفاً » (١) .

استدعى خالد ضراراً فقال له « يا ابن الأزور أريد أن أقدمك على خمسة آلاف ، قد باعوا أنفسهم من الله عز وجل

(١) فتوح الشام للواقدى

واختاروا دار البقاء والآخرة على الأولى ، فقال ضرار « وافرحتاه يا ابن الوليد ، ما دخل قلبي مسرة أعظم من هذه . ثم يسير ضرار على يمن الرحمن ، فلما بلغ أجنادين رأى جيش الروم ينحدر كأنه الجراد المنتشر ، وهم غائصون فى الدروع وقد أشرقت الشمس عليهم ، فلمعت دروعهم وخوذهم ، فقال أصحاب رسول الله لضرار سما لنا والله بهم حول ، فان هؤلاء جيش عرمرم ، وخير لنا أن نقفل » فيكره ضرار ذلك القول ويقول « والله لا يرانى الله منهزماً ، ولن أزال أضرب بسيفى فى سبيله وأتبع سبيل من أناب إليه ، ولا أوليهم الدبر ، والله يقول (ولا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله) . . . » ثم تكلم رافع بن عميرة فقال « يا قوم اما نصركم الله فى مواطن كثيرة وأنتم قليلو العدد ؟ ألا أن النصر مقرون مع الصبر . ولم تزل طائفتنا تلق الجموع الكثيرة ، فاتبعوا سبيل المؤمنين ، وتضرعوا الى رب العالمين ، وقولوا كما قال قوم طالوت (ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) . . » فيسترد القوم قواهم ويهللون ويكبرون (الله أكبر ، الله أكبر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر) .

التقى الجمان وضرار يتقدم القوم وهو يرجز :

للموت حق أين لى منه المفر   وجنة الفردوس خير المستقر
هذا قتالى فاشهدوا يامن حضر   وكل هذا فى رضا رب البشر

ثم اخترق القوم وحمل عليهم حملة نكراء فأحدقوا به ، فأخذ يستصرخ قومه ويقول : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » فيهجم المسلمون ويصيب ضراراً سهم فى عضده فيطمع الروم فيه ويحملون عليه فيأسروه . ويجىء خالداً الصريخ فيولى على جند دمشق ميسرة بن مسروق وسعيد بنى عبس ، ويتوجه بطليعة إلى أجنادين ، وكان بين جنده فارس على جواد فاره وبيده رمح طويلة ، قد تجلبب بجلابيب سود ، وتلثم حتى لايرى منه إلا الحدق ، وكان يسبق القوم وخالد يعجب من أمره ، فلما أن أدرك خالد المسلمين فى أجنادين وجد هذا الفارس المتلثم يهبط على الروم كأنه النار المحرقة ، فزعزع الكتائب وحطم الأجناد . وكان يخترق قلب خميس الروم ، فما هى إلا جولة جائل حتى يخرج وسنانه ملطخ بالدماء ، وقد جندل رجالاً وصرع أبطالاً . ثم يعود فيخرق القوم ثانية معرضاً نفسه للهلاك والناس أمامه اما مصروع أو فارّ . وكثر قلق المسلمين عليه وهم لايدرون من هو — وقد ظنه بعضهم خالد فما هى إلا جولات خالد — ولما رأوا خالداً بينهم سألوه عنه فقال أنا والله لأشد إنكاراً وتعجباً .

وما أن غابت الشمس ووقفت الحرب ، حتى أحدق القوم بهذا الفارس وفيهم خالد يسألونه عن اسمه فلا يجيب ، ثم ينتحى بخالد زاوية فيقول له : « ماسكت ياسيف الله حين سألتمونى عن اسمى إلا حياء منك لأنك أمير جليل ، وأنا من ذوات الحجال ، وإنما حملنى على ذلك أنى محرقة الكبد ، زائدة الكمد . فقال : من أنت ؟ قالت : خولة بنت الأزور أخت ضرار أسير الروم ، أتانى آت بخبر أخى فركبت وفعلت مافعلت . » .

أشرقت الشمس بجدد المسلمون عزائمهم وكروا على القوم وحملوا حملة عظم أمرها على الروم ، وكانت خولة تجول فى كل مكان تطلب أخاها وهى لاترى له أثراً ولا يراه أحد من المسلمين فيعم القوم حزن شديد وتبكيه بقولها : « ياابن أمى ! ليت شعرى فى أى البيداء طرحوك ، أم بأى سنان طعنوك ، يا أخى، أختك لك الفداء . . . ليت شعرى، أترانى أراك بعدها أبداً ؟ فقد تركت فى قلب اختك جمرة لايخمد لهيبها ولا يطفأ ، فعليك منى السلام إلى يوم اللقاء » . فبكى القوم وبكى خالد لحالها . وبينا المسلمون فى شدة واضطراب إذا هم بمن يخبرهم بأن الروم أخذوا ضراراً إلى صاحب حمص لينفذه إلى الملك ، ففرح خالد وتهلل وجهه ، وشكرت خولة الله ، فدعا خالد رافع بن عمرة الطائى لينفذه إلى حمص ، فسار خالد فى مئة منهم خولة ، فما وصل القوم قرب حمص حتى كمنوا ، فبينا هم كذلك إذا بنفر أقبلوا ، فنبه رافع قومه ، فلما قاربوهم كر عليهم رافع فاذا فيهم ضراراً فتجالد الفريقان حتى أنقذ ضرار ، نفرت خولة لله شكراً وشكر خالد لرافع بلاءه .

هذا موقف من مواقف بسالتها الخالدات ، وما موقفها يوم أسر النساء فى يوم صحورا والناس يغزون الشام بالأمر الذى ينسى فقد ذكر الطبرى أنها أسرت فى فريق من نسوة حمير . فجمعتهن وخطبتهن تستحثهن على الثورة على هؤلاء الأعلاج ، وقالت « يابنات حمير ، وبقية تبع ، أترضين لأنفسكن علوج الروم ، وأن يكون أولادكن عبيداً لأهل الشرك ، فأين شجاعتكن التى تتحدث بها عنكن أحياء العرب ، ولا أراكن إلا بمعزل عن ذلك ، وإنى أرى القتل عليكن أهون من هذه المصائب ، وما تزل بكن من